التحية الثامنة:

تحت عنوان: **(الدكتور حسان حلاق.. العَلَمُ الأبُ برتبة حكيم)**

بقلم الدكتورة: إيمان مرداس

أستاذة التاريخ في الجامعة الأميركية في الإمارات

تلقّيت خبر وفاتك كالصاعقة، شعرتُ بوجع هائل في صدري، وارتسمت في مقلتيَّ دمعات تبحث عن قناة ومجرى لها، فأبت أن تُذرَف؛ فلا الدمعُ يُكفكفُ ألم الرحيل، ولا الحزنُ الضاربُ في أعماق القلب يُخفّفُ من لوعة الفراق. فرحيلُك أستاذي الفاضل ذكّرني برحيلِ والدي، كلاكما ترَكَ في قلبي بصماتٍ من الأقوال والأفعال سأفتقدكما في سنوات الأهوال.

الحياة قاسية، وأقسى ما فيها غياب عزيز علينا، وأعظم أنواع الفقد وقعًا وأشدّه ألمًا، فقدان أستاذ عظيم من رتبة حكيم. ولو كان الموتُ يعرف مقدار الألم والغصّة التي يتركها في قلوب محبّيه وعارفيه وأسرته وطلابه، لشفع له، وما تجرأ أبدًا على طرق أبوابه، رغم أنه الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود، ومصير كلِّ فرد حيّ، نؤمن به وننتظره.

إذًا.. لماذا يُثير الموت هذه الرهبة؟ وتنفر قلوبنا من ذكره، وتنتفض أرواحنا رعبًا منه؟

لماذا نحزن ونبكي راحلينا وتعتصر قلوبنا ألمًا ودمعًا وتنزف أقلامنا دمًا؟ هل نبكيهم لأنهم ذهبوا في لا عودة، وانطفأت شموعهم التي كانت تنير قلوبنا ودروبنا في هذه الحياة؟ أم نبكي أنفسنا لأنهم تركونا ونحن ما زلنا بحاجة إليهم؟ أم لأن الغموض يكتنف ماهية الموت فيُحيط ذاته بوحشة التفاصيل والمؤشرات؟ وهل هو قلق وجودي يُشكل رُهابًا جماعيًا؟

في الحقيقة أعجز عن الإجابة على سؤال فلسفي يؤرق العقل الإنسان عبر العصور!! وكل ما أعرفه، ببداهة البساطة، أنني فَقدتُ أستاذًا فاضلًا، ومرشدًا معينًا دأبه الحقيقة والجودة الفائقة، بحبّ ودعم بلا حدود، لم يرض بغير الحقيقة منهجًا وطريقًا، وبغير الحق سلوكاً ونبلاً، وفضله لا يُمكن حصره ببضع كلمات أو تصفه عبارات مقالة، ولا يُمكن أن يكتبها قلمي ويحيط بها فكري لكثرتها.

أستاذي الباقي رغم الغياب، الخالد رغم الزوال المادي، لن أنسى ما جادت به نفسك الكريمة من معلومة وكلمة وسلوك فأضأت حياتي حين الحاجة لدعم في أيام العتمة الشديدة. لن أنسى مواقفك الكريمة والنبيلة معي، والتي لا تحصى ولا تعدّ، وكيف غرستَ فيّ قيم الحق والخير والجمال التي أصبحت منهجًا في مسيرة حياتي بفضلك وقدوتك. آمنت بي أكثر من إيماني بنفسي، كنت تراني مكافحة وعصاميّة وتُقدّر ذلك وتحترمه.

وها أنا اليوم وصلت إلى حيث أردتني أن أكون رغم التحديات والصعوبات التي واجهت مسيرتي العلمية.

وأنا أستعيدُ صورتك، لا تحضرني إلا صورة ذلك الأب الحنون على أبنائه، بشغفه الدائم في الحديث عنهم، واحتضانه المستمر لهم. وهذا الحس الأبوي تجسّد حبًّا لطلابك من أبناء الدول العربية كافة، بلا تمييز بين فاضل ومفضول، فكُنتَ المنارة التي تنير العقول بوقود العلم والمعرفة وفيض حب العطاء بلا انقطاع ولا شروط.

لن أنسى حضور القضية الفلسطينية بحقائقها المختلفة وصورها المتنوّعة بين الغضب والألم، وكلامك الذي كنت تردّده على مسامعي بأن صرف النظر عما تشهده فلسطين يُسبب خللاً في مفاتيح إنسانيتنا وقيمها. حملت القضية الفلسطينية في قلبك وقلمك، فنشأتْ بينكما علاقة مصيرية لا انفصام فيها ولا فكاك منها، وحالة من الوعي الفكري الوطني. لأنك أدركت أبعاد الصراع الوجودي بين حقيقتين لا يمكن أن تتعايشا فوق أرض واحدة، حقيقة وجودنا التاريخي الزماني الطبيعي لا انقطاع طيلة ملايين السنين منذ تكون النوع البشري، وحقيقة وهم المشروع الصهيوني بالاحتلال اليهودي ومخططاته الاستعمارية؛ فأعطيت القضية فلسطين حجمها وواكبت تطوراتها وكشفت النفاق وتحريف التاريخ.

برحيلك أستاذي الفقيد العظيم، انفتحت فجوة في وعينا العلمي القومي الوطني، وسنحتاج للكثير من الجهد لترميمها ليستمرّ ما فعلت فاعلاً فينا بعمق البصيرة، وأصالة التأريخ،

ونبل العطاء، وسبر الماضي، وفهم الحاضر وتبلور المستقبل فوق هذه الأرض.

أحببت مدينة بيروت بنبض شوارعها وحيوية أبنائها، تلك المدينة العابقة بروائح التاريخ الزكيّة التي تحتضن الجبل والبحر، تشهد عليها شجر الأرز الضارب بأصله في الأعماق، في تفاصيلها يقطن الجمال، وفي هواها يسكن السلام، وفي بيوتها يكمن الأمل بانتظار النهضة ويصحو كل يوم ليعلن إشراقة شمس الحياة من جديد. ومع تأوهات حسرة رحيلها الجسيم عليها، والآن على رحيلك المفجع، كنت دائمًا تردد أن بيروت لا ولن تموت، لأنها مدينة لا تشبه سواها، هي أرض العدالة، ومدينة الشرائع، وعرزال العز والكرامة.

ها هي بيروت الوفية ردّت لك المحبة بالمحبة، وضمتك إلى حضنها الدافئ. ها هي يدها الحانية تمسح عنك تعبَ العمر وعرق الأيام، وقسوة الحياة، ودموع الألم، برحمة امومتها لترتاح هنيئًا واثقًا من قيامتها الأكيدة.

أستاذي الفاضل، الإنسان الطيب، المربي المخلص، المشرف الأب، يعز علينا فراقك في وقت نحتاج فيه إلى أمثالك من الرجال الأوفياء الصادقين، المؤمنين بالرسالة التربوية العظيمة، ومن القلائل الذين همهم إعداد جيل صالح مؤمن بأمته، يبني الأوطان.

فارقتنا، بعد مسيرة عطاء عريضة، تاركًا سيرة عطرة، وذكرى طيبة، وميراثًا من القيم النبيلة. وما يُعزينا أن أمثالك لا يرحلون عن العالم عند موتهم، وإنما يظلون في سمائنا وأرضنا، في ذاكرتنا وفكرنا وجداننا قيمة حق ونسمة خير ونبضة جمال.

لأول مرة أجد قلمي جافًا، أشحذ مداده، لأصف رجلًا تنحني له القامات، وترفع له القبعات، فيبقى قاصرًا عن وفائه ووصفه، ومهما سطرت من كلمات لن أفيه حقه ولن أبادل عطاءه بما يوازيه.